ان يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان : « نحو المدنية الغربية » ولكنه حينئذ يجب ان يودع ماضيه الى الابد، او انه يستطيع ان يختار الطريق التي كتب عليهـــا : « الى حقيقة الاسلام » . ان هذه الطريق وحدها هي التي تستميل اولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي .

الحديث والسنة

●

لقد عُرضت اقتراحات كثيرة للإصلاح في اثناء العقود الاخيرة، وحاول كثيرون من الاطباء الروحيين تركيب علاج ناجع لجسم الاسلام المريض، ولكن جهود هؤلاء كلهم كانت الى الآن عبثاً . ذلك لأن جميع اولئك الأطباء الحذاق ـ او على الأقل اصحاب الكلمة المسموعة منهم ـ نسوا ان يضعوا مع هذا العلاج ومع الأدوية المعيدة للصحة ومع انواع الاكسير الغذاء الطبيعي الذي تقوم عليه النقاهة الاولى للمريض . هذا الغذاء الوحيـــد الذي يستطيع جسم الاسلام في حالتي صحته وسقامه ان يُقبل عليه ، والذي تتمكن أجهزته من امتصاصه بكل تأكيد هو سنّة محمد.

لقد كانت السنة مفتاحاً لفهم النهضة الاسلامية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً ، فلماذا لا تكون مفتاحاً لفهم انحلالنا الحاضر؟ ان العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الاسلام وعلى تقدمه ، وان ترك السنّة هو انحلال الاسلام ... لقد كانت السنّة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الاسلام ، وانك اذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيدهشك ان يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق ؟

إن الحقيقة البسيطة التي أجمع على القول بها جميع العلماء في جميع أعصر التاريخ الاسلامي لا تلقى، كما نعلم نحن جيداً، قبولاً اليوم لأسباب تتعلق بمؤثرات المدنية الغربية ، تلك المؤثرات التي تزداد نمواً يوماً بعد يوم . إلا ان تلك هي الحقيقة الوحيدة التي يمكننا أن تنقذنا من الفوضى والعار اللذين سبّبهما انحلالنا الحاضر.

إننا نستعمل هنا كلمة «السنّة» بأوسع معانيها، على انها المثال الذي أقامه لنا الرسول من اعماله وأقواله . إن حياته العجيبة كانت تمثيلاً حياً وتفسيراً لما جاء في القرآن الكريم ، ولا يمكننا ان ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذي قد بلّغ الوحي.

*

لقد رأينا من أهم مآتي الاسلام تلك المآتي التي تميز من سائر النظم المطلقة ـ التوفيق التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الحياة الانسانية . هذا سبب من الاسباب التي عملت على ظفر الاسلام في إبان قوته اينما حل . لقد أتى الأسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتقار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة . تلك الخاصة الظاهرة في الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على ان نبينا ، الذي كان في رسالته الدليل الهادي للانسانية ، كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها : في المظهر الروحي والمظهر المادي [وعلى هذا حديث رسول الله ﷺ : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً]. وإنه لمن الجهل بالاسلام ان يحاول أحدنا أن يوفق بين أوامر للرسول تتعلق بأمور تعبدية روحية خالصة وبين غيرها من التي تتصل بقضايا المجتمع وقضايا

حياتنا اليومية. وإن القول بأننا مجبرون على اتباع الأوامر المتعلقة بالنوع الأول ولكننا لسنا مجبرين على ان نتبع الاوامر المتعلقة بالنوع الثاني إنما هو نظر سطحي ، وهو فوق ذلك مناهض في روحه للإسلام مثل الفكرة القائلة بأن بعض أوامر القرآن الكريم قد قُصد بها العرب الذين عاصروا نزول الوحي لا النخبة من الاكياس (الجنتلمان) الذين يعيشون في القرن العشرين . ان هذا بخس شديد لقدر النور النبوي الذي قام به المصطفى ﷺ

وكما أن حياة المسلم يجب أن تقوم على التعاون التام المطلق بين ذاته الروحية وذاته الجسدية، فإن هداية نبينا يجب أن تضمّ الحياة على انها وحدة مركبة ، أي على انها مجموع أعمق المظاهر الخلقية والعملية والشخصية والاجتماعية . وهذا هو أعمق معاني السنة .

ولقد قال القرآن الكريم: « وما آتاكُمُ الرّسولُ فخذُوهُ وما نهاكُمْ عنْهُ فانتهُوا[1] » ، وقال الرسول « تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة[2]». وهنا يجب ان نذكر أن استعمال الرقم «سبعين» في اللغة العربية يدل غالباً على «الكثرة» وليس من الضروي ان يدلّ على عدد حسابي ايجابي . والظاهر من قول الرسول انه قصد ان يقول ان الفِرَقَ والشِيَع بين المسلمين ستكون كثيرة ، حتى انها لتكون اكثر من تلك التي بين النصارى واليهود . ثم ان الرسول اضاف الى ما تقدم قوله :

(١) القرآن الكريم ، سورة ٥٩ (الحشر) : ٧

(٢) سنن ابي داود وجامع الترمذي وسنن الدارمي ومسند ابن حنبل .

« كلهم في النار إلا واحدة » وحينما سأله الصحابة رضوان الله عليهم عن الفرقة المهتدية الناجية قال: « ما أنا عليه وأصحابي». وهذا يعني أن أولئك الذين اتخذوا الرسول واصحابه دليلاً يهتدون به في حياتهم هم الذين يسلكون السبيل الروحي للفوز . ثم إن هنالك آيات في القرآن تجلو هذه الناحية التي لا تترك مجالاً ما للاختلاف في التأويل : «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما (1) » وكذلك: « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين (2)».

فسنة الرسول إذن تالية للقرآن ، وهي المصدر الثاني للشرع الاسلامي وللسلوك الشخصي والاجتماعي. وفي الحقيقة يجب علينا أن نعتبر ان السنة انما هي التفسير الوحيد لتعاليم القرآن الكريم والوسيلة الوحيدة لاجتناب الخلاف في تأويل تلك التعاليم وتطبيقها في الحياة العملية . ان في القرآن آيات تنطوي على معنى رمزي ، ويمكن ان تفهم على اوجه مختلفات اذا لم يكن لدينا طريقة صحيحة للتأويل . ان الروح السائد في القرآن الكريم هو أن يكون موثوقاً متفق الاجزاء ، على أن استنباط الاتجاه العملي الذي يجب أن نتخذه نحن ليس هيناً في جميع الاحوال : وما دمنا نعتقد ان

(1) سورة ٤ (النساء) : ٦٤ .

(2) سورة ٣ (آل عمران) : ٣١ - ٣٢ .

القرآن الكريم كلام الله تماماً في مبناه ومعناه ، فالنتيجة المنطقية لذلك أنه لم يقصد به قط أن يكون مستقلاً عن هداية الرسول الشخصية على ماهي مبسوطة في السنة . واننا سنحاول في الفصل التالي تبيان الأسباب الغائية لاتصال القرآن الكريم -في جميع العصور- بشخصية الرسول الهادية الملهمة . ثم ان تفكيرنا يقودنا حتماً الى أنه ليس ثمة حكم ، فيما يتعلق بالتأويل العملي لتعاليم القرآن الكريم أفضل من الذي اوحيت اليه هذه التعاليم هدى للعالمين . ان التعبير الذي يتردد على مسامعنا اليوم كثيراً : «لنرجع إلى القرآن الكريم ولكن يجب أن لا نجعل من أنفسنا اتباعاً مستعبدين للسنة » ينكشف بكل بساطة عن جهل للاسلام . إن الذين يقولون هذا القول يشبهون رجلاً يريد أن يدخل قصراً ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب .

وهنا تعرض المشكلة الكبيرة التي تتعلق بصحة المصادر التي تكشف لنا عن حياة الرسول وتذكر اقواله . هذه المصادر هي الحديث ، وهو ما روي من أقوال الرسول وأعماله التي ذكرها أصحابه ونقلوها ثم جمعت بعد التمحيص في القرون الأولى التي تلت الهجرة. هنالك كثيرون من المسلمين العصريين الذين يعلنون بأنهم على استعداد للعمل بالسنة ، ولكنهم يظنون انهم لا يستطيعون الاعتماد على مجموع الحديث الذي تقوم عليه السنة . ولقد اصبح من قبيل الزي في ايامنا هذه ان ينكر المرء مبدئياً صحة الحديث ، ثم هو من اجل ذلك ينكر نظام السنة كله .

هل هنالك أساس علمي لهذا الاتجاه؟ أم هل هنالك مبرر علمي

لرفض الحديث على انه مصدر يستند اليه الشرع الاسلامي ؟

إننا نظن أن خصوم الرأي الصحيح ـ مذهب أهل السنة فيما يتعلق بالحديث ـ لا يمكن أن يأتوا بأدلة مقنعة فعلاً تثبت مرة واحدة عدم الثقة بالأحاديث المنسوبة إلى الرسول. ولكن ليس هذا موضوعنا. إنه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحدّي الحديث على انه نظام ما، فان اولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفيّ الخالص بنتائج من البحث العلمي. وانه من الصعب أن يفعل أحد ذلك، لان الجامعين لكتب الحديث الاولى ، وخصوصاً الامامين البخاريّ ومسلماً، قد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضاً أشد كثيراً من ذلك الذي يلجأ اليه المؤرخون الاوروبيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم .

اننا نتخطّى نطاق هذا الكتاب اذا نحن أسهبنا في الكلام، على وجه التفصيل، في الاسلوب الدقيق الذي كان المحدّثون ـ علماء الحديث ـ الاولون يستعملونه للتثبت من صحة كل حديث، ويكفي ـ من أجل ما نحن هنا بصدده ـ أن نقول إنه نشأ من ذلك علم تام الفروع غايته الوحيدة البحث في معاني أحاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها. ولقد استطاع هذا العلم في الناحية التاريخية أن يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الاشخاص الذين ذُكروا على انهم رواة أو محدثون ان تراجم هؤلاء الرجال والنساء قد خضعت لبحث دقيق من كل ناحية ، ولم يُعَدّ منهم في الثقات الا اولئك الذين كانت حياتهم وطريقة روايتهم للحديث تتفق تماماً مع

القواعد التي وضعها المحدثون ، تلك القواعد التي تُعتبر على أشد ما يمكن أن يكون من الدقة. فإذا اعترض أحد اليوم من أجل ذلك على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة فإن عليه هو وحده أن يُثبت ذلك. وليس ثمة من مبرر مطلقاً من الناحية العلمية أن يجرح أحد صحة مصدر تاريخي ما ، ما لم يكن باستطاعته أن يبرهن على ان هذا المصدر منقوص . فاذا لم تقم حجة معقولة ، أي علمية ، على الشك في المصدر نفسه أو في أحد رواته المتأخرين، وإذا لم يكن ثمة من الناحية الثانية خبر آخر يناقضه، كان حتماً علينا حينئذ أن نقبل الحديث على انه صحيح .

لنفرض مثلاً ان رجلاً ما كان يتكلم عن حروب محمود الغزنوي في الهند، ثم نهضت أنت وقلت له : « لا أعتقد ان محموداً الغزنوي كان يوماً ما في الهند وان ما تذكره خرافة لا اساس تاريخياً لها». فماذا يمكن أن يحدث في مثل هذه الحال؟ سينهض في الحال قوم متضلعون من التاريخ ويحاولون اصلاح خطأك فيستشهدون بكتب الاخبار والتاريخ المبنية على أخبار رواها معاصرو ذاك السلطان المشهور ويعتبرونها أدلة قاطعاً تثبت أن محموداً ذهب إلى الهند. في تلك الحال يجب عليك أن تذعن للبرهان والا عدّوك فريسة للأوهام تنكر الحقائق التاريخية الثابتة من غير سبب واضح. فاذا كان ذلك كذلك فعلى الانسان أن يتساءل عما يمنع النقاد العصريين من أن يشملوا مشكلة الحديث أيضاً بهذه النظرية المنطقية الواسعة.

إن السبب الاول لوجود حديث مكذوب إنما هو كذبة متعمدة ترجع إلى مصدره الاول اي إلى الصحابي او إلى أحد الرواة

المتأخرين. أما فيما يتعلق بالصحابي فيمكن صرف التهمة عنه ابتداءً. واننا لن نتكلف سوى شيء من النظر الثاقب في الناحية النفسانية لنردّ مثل هذه المزاعم إلى نطاق الوهم الخالص. ان الاثر العظيم الذي تركته شخصية الرسول في اولئك الرجال إنما هي حقيقةٌ من أبرز حقائق التاريخ الانساني، ثم هي فوق ذلك ثابتة بالوثائق التاريخية. فهل يمر في خيالنا ان اولئك الرجال الذين كانوا على استعداد لأن يضحوا أنفسهم وما يملكون في سبيل رسول الله كانوا يتلاعبون بكلماته؟ لقد قال الرسول: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1]. لقد عرف الصحابة ذلك، ولقد اعتقدوا ضمناً بكلام الرسول الذي كانوا ينظرون اليه على أنه ينطِق عن الله. أفمن المحتمل، من وجهة النظر النفسانية اذن أن يُغفلوا هذا النهي الصريح نفسه؟

ان أول سؤال يواجه القاضي عند سماع الدعوى في محاكم الجنايات هو: «من ذا الذي يمكن ان يكون قد استفاد من ارتكاب الجريمة؟» ان هذا المبدأ القضائي يمكن أن ينطبق على مشكلة الحديث. ثم اننا إذا استثنينا بعض الأحاديث التي تتعلق مباشرة بالأحوال الشخصية لدى بعض الأفراد أو الجماعات كالأحاديث التي هي بلا شك موضوعة والتي اتفق أكثر المحدثين على رفضها من مثل ادعاء الاحزاب المختلفة للخلافة في القرن الاول بعد وفاة الرسول، لم يكن ثمت من سبب يرجع بالفائدة على أحد ما

(١) صحيح البخاري، سنن أبي داود، جامع الترمذي، سنن ابن ماجة سنن الدارمي، مسند احمد بن حنبل.

فيما لو وضع الأحاديث على رسول الله. ولقد كان من الادراك الصحيح لإمكان وضع مثل هذه الاحاديث لغايات شخصية ان أعظم رجال الحديث الإمامين البخاري ومسلماً حذفا من صحيحهما كل حديث يتعلق بسياسة الأحزاب. وأما ما بقي فقد كان، على وجه التقريب، وراء كل شك، خالياً من كل فائدة شخصية لكل فرد. ثم ان هنالك احتجاجاً آخر يمكن أن يتحدى الناس على اساسه صحة الحديث. فقد يقال أن الصحابي الذي سمع الحديث من شفتي الرسول أو احد الرواة المتأخرين قد أخطأ ـ مع انه في اعتقاد نفسه صادق ـ خطأ حمله عليه سوء فهم أو نسيان أو سبب آخر من الاسباب النفسانية. ولكن الإيقان الداخلي أي النفساني يشهد على بطلان إمكان وقوع مثل هذا الخطأ إلى حد كبير، وعلى الأقل من الصحابة، ذلك لأن الذين عاشوا في صحبة الرسول رأوا جميعهم في أقوال الرسول وأعماله أعظم الأهمية، لا لأن شخصية الرسول أثرت فيهم فخلبت ألبابهم فقط بل لأنهم كانوا أيضاً على اعتقاد جازم بأن ذلك كان أمراً من الله تعالى لتنظيم حياتهم حتى في أدقّ تفاصيلها، كل ذلك اهتداءً بالرسول واقتداء به. من أجل ذلك لم يستطيعوا أن يتناولوا الأحاديث بلا اكتراث، بل جربوا أن يتعلموها وأن يحفظوها عن ظهر قلب ولو أدى ذلك إلى شيء من الازعاج الشخصي لهم. ومما يروى ان الصحابة الذين كانوا يلازمون الرسول انقسموا رجلين رجلين: فكان أحد الرجلين يلازم الرسول مرة بينما يسعى الآخر وراء رزقه أو يقوم على اموره، ثم يلازم الرجل الآخر الرسول ليتمكن الأول من السعي وراء رزقه. وكان كلما سمع احدهما شيئاً عن الرسول

أو رأى عملاً من أعماله نقله إلى صاحبه. ولقد كانوا جميعهم شديدي الحرص على ألا يفوتهم شيء من أقواله أو أفعاله . ومن المرجح انهم في مثل هذه المواقف قد أهملوا لفظ الحديث كما قاله الرسول تماماً . ولكن إذا كان مئات الصحابة قد حفظوا جميع القرآن الكريم غيباً بلفظه وبما فيه من فروق ضئيلة في الرسم (التهجئة) فلا ريب في انه كان ممكناً لهم وللتابعين من بعدهم أن يحفظوا أقوال الرسول متفرقة كما حفظوا القرآن سواء بسواء، ولكن من غير ان يزيدوا على الأحاديث أو أن ينقصوا منها شيئاً. ان المحدّثين يرون ان الحديث الصحيح ما رُوي واحداً في معناه ولكن بأسانيد مختلفة مستقلة. ومع هذا كله فلم يَدُرْ في خلد مسلم ان احاديث الرسول تبلغ في المقام أو في الصحة التي لا مجال فيها للجدال مبلغ القرآن الكريم ، ولم يخل زمن ما من دراسة للحديث ونقده . ثم إن الأحاديث الموضوعة (المكذوبة) لم تخفَ قط على المحدثين كما يزعم بعض النقاد الاوروبيين عن سذاجة ، بل إننا نرى عكس ذلك الزعم . ان علم الحديث بدأ لما مسّت الضرورة إلى تمييز الحديث الصحيح من الحديث الموضوع ، وان صحيحي الامامين البخاري ومسلم ليسا سوى نتيجة مباشرة لهذا التمييز. فوجود الأحاديث الموضوعة إذن لا يمكن أن يكون دليلا على ضعف نظام الحديث في مجموعه ، كما أنه لا ينتظر من قصص الف ليلة وليلة أن تبرهن على شيء يتعلق بالإثبات أو بالطعن في صحة الأخبار التاريخية المروية على عصر تلك القصص .

لم يستطع ناقد ما حتى أيامنا هذه أن يبرهن بطريقة منظمة

ذات قواعد على أن مجموع الأحاديث تعتبر صحيحة حسب القواعد التي وضعها أئمة المحدّثين هي غير صحيحة . إن رفض الأحاديث الصحيحة ، جملة واحدة أو أقساماً ، ليس حق اليوم — كما سبق لنا القول — إلا قضية ذوق ، قضية قصرت عن أن تجعل من نفسها بحثاً علمياً خالصاً من الأهواء . وان السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه إلى مصدره . ان السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الاسلام الصحيح ، كما يظهر في سنة النبي ، في نظام واحد . ولكي يستطيع نَقَدَةُ الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فانهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ ان يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من « التفكير » السطحي — أي حسب ميول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو ، ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للاسلام — على انه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي — تنتهي بهذه الطريقة الى التهافت والاندثار .

وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الاسلامية نجد سبباً جديداً يضاف الى الموقف المستغرب الذي يقفه من نسميهم « متنوري المسلمين » من هذه القضية ، ذلك هو قولهم أنه من المستحيل أن نعيش على سنة النبي وان نتّبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد . ثم ان الجيل المسلم

الحاضر مستعد لأن يُكبِر كل شيء غربي وأن يتعبد لكل مدنية اجنبية لأنها أجنبية ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية . هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي وجعلت جميع نظام السنّة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا . ان السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربية معارضة صريحة ، حتى أن أولئك الذين خلبتهم الثانية لا يجدون محرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها . وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ، لكي تظهر موافقة لروح المدنية الغربية ، أكثر سهولة .

روح السنة

●

ان تبرير السنّة من ناحيتها الباطنية الروحية انما هو على درجة واحدة من الأهمية تقريباً مع تبريرها شكلياً او ، كما يقال، شرعياً – وذلك فيما يتعلق بتقرير استنادها التاريخي الى الحديث . لماذا ننظر الى العمل بالسنة على انه امر لا بد منه اذا اردنا ان نحيا حياة تتفق في معناها مع الاسلام؟ أليس ثمة سبيل آخر الى حقيقة الاسلام سوى ذلك النظام المتسع من الأعمال والعادات والاوامر والنواهي، مما نجد بعضه تافهاً ، وان كان جميعه مستقى من حياة الرسول ؟ مما لا شك فيه ان الرسول كان اعظم الرجال ، ولكن أليس الاجبار على تقليد حياته في جميع تفاصيلها الشكلية افتئاتاً على الحرية الفردية في الشخصية الانسانية؟ هذا اعتراض قديم يعترض به النقاد من غير الموالين للاسلام عادة ، اذ يقولون ان التشديد في اتباع السنة كان سبباً من الاسباب الاساسية التي قادت الى انحلال العالم الاسلامي . وقد ظنوا ان مثل هذا الاتجاه سيكون في النهاية اعتداءً على حرية النشاط الانساني وعلى التطور الطبيعي للمجتمع . إن من أعظم الأهمية لمستقبل الاسلام ان نعلم – سواء أكان باستطاعتنا ان نجيب على هذا الاعتراض ام لم يكن – ان موقفنا

من السنة هو الذي سيقرر موقفنا من الاسلام .

اننا فخورون بحق بأن الاسلام كدين لا يقوم على عقيدة تصوفية ولكنه يتقبل دائماً البحث الانتقادي العاقل . فنحن من اجل ذلك على حق اذا كنا لا نكتفي بأن نعلم فقط ان العمل بالسنة واجب علينا، بل اذا تطلبنا ان نفهم السبب الملازم لهذا الوجوب.

بهذا نكون قد وصلنا الى مشكلة تستحق اعتباراً خاصاً. ان الاسلام يحمل الانسان على توحيد جميع نواحي الحياة. وبما ان هذا الدين واسطة الى هذه الغاية فإنه يمثل في نفسه مجموع مدركات لا يجوز ان يضاف اليها شيء ولا ان ينقص منها شيء . كما انه ليس في الاسلام مجال للخِيَرة ، فإذا قبلنا تعاليمه كما بسطها القرآن الكريم فعلاً او كما أوردها الرسول فيجب علينا ان نقبلها تامة وإلا خسرت قيمتها. ومن سوء الفهم الاساسي للاسلام ان نظنه، وهو دين العقل يُخضع تعاليمه للاختيار الشخصي ـ وتلك دعوى نشأت من الخطأ الشائع في فهم الفلسفة العقلية. هنالك شقة واسعة ـ على ما اعترفت به ايضاً الفلسفة في جميع الأعصر ـ بين العقل وبين الفلسفة العقلية كما يفهمها عادة بعضهم اليوم . ان لعمل العقل فيما يتعلق بالتعاليم الدينية صفة الوازع، وواجبه ان يرى انه لا يُفْرَض على العقل إلا ما يحتمله العقل بسهولة ومن غير لجوء الى الخدع الفلسفية. اما فيما يتعلق بالدين الاسلامي فإن العقل البعيد عن الهوى قد وثق به مرة بعد مرة ثقة مطلقة من كل قيد. ولكن هذا لا يعني ان كل انسان اتصل بالاسلام وجب عليه ضرورة ان يقبل تعاليمه كأنها حتم عليه ، تلك قضية مزاج وهي في آخر الأمر ـ من

حيث الترتيب لا من حيث الاهمية ـ قضية اشراق روحي أو «هداية» كما يدعوها القرآن الكريم . وليس من شخص بعيد عن الهوى يجادل في الاسلام ليزعم ان فيه شيئاً مخالفاً للعقل. الا انه مما لا شك فيه ان ثمت اشياء وراء حدود العقل الانساني، ولكنها لا تخالفه.

إلى هنا كان عمل العقل في الامور الدينية ـ كما رأينا ـ عملاً من الرقابة السلبية ، انه آلة تسجيل تقول « نعم » او « لا » كما تقتضي الحال. ولكن ليس الأمر كذلك في ما يسمونه بالفلسفة العقلية ، انها لا تكتفي بالتسجيل والمراقبة بل تقفز إلى ميدان التفكير السلبي . انها ليست متفهمة ولا مستقلة كالعقل المطلق ولكنها ذاتية مزاجية إلى الحد الاقصى. ان العقل يعرف حدوده الخاصة به ولكن الفلسفة العقلية تتخطى المعقول في ادعائها حصر العالم بجميع خفاياه في نطاقها الفردي الضيق. وهي لا تكاد تسلّم في الأمور الدينية بأنه من الممكن وجود أشياء لا يطيقها الفهم الانساني في زمن مـــا أو في كل زمن ، مع انها في الوقت نفسه تخالف المنطق إلى حد انها تسلّم بهذا الإمكان للعلم .

ان قدْرَ تلك الفلسفة العقلية غير المبدعة فوق قدرها هو احد الأسباب التي تحمل كثيرين من المسلمين العصريين على أن يأبوا اسلام أنفسهم إلى هداية الرسول. وإننا اليوم لا نحتاج إلى فيلسوف مثل «كَنْت»[1] ليبرهن لنا على ان الفهم الانساني محدود تماماً بما ينطوي عليه من وجوه الامكان. إن عقلنا لا يستطيع، بما رُكب

(١) عمانوئيل كنت اعظم الفلاسفة العقليين في العصر الحديث وأحد كبار الفلاسفة في جميع عصورها. وقد اشتهر بكتابه «نقد العقل المحض» (ت ١٨٠٤م).

في طبيعته ، ان يحيط بفكرة « الكلية » . اننا نستطيع أن نفهم من كل شيء تفاصيله فقط. اننا لا ندري ما اللانهاية ولا ما الأزل حتى اننا لا نعلم ما الحياة . أما في قضايا الدين المبنية على اسس مطلقة فاننا نحتاج ضرورة إلى هادٍ يتصف عقله بشيء فوق ما يتصف به التفكير المادي وفوق ما تتصف به الفلسفة العقلية الذاتية العامة فينا : إننا نحتاج إلى من أشرق عليه نور الله — أو بكلمة واحدة إلى نبي . فإذا كنا نعتقد ان القرآن الكريم كلام الله وان محمداً رسول الله، فإننا نصبح حينئذ مُلزَمين أدبياً وعقلياً بأن نتبع هدى الرسول اتباعاً أعمى . على ان التعبير «أعمى» لا يعني اننا نحب أن نطرح جميع قوى العقل ، بل بالعكس يجب علينا أن نستغل تلك القوى في أحسن وجوه مقدرتنا واستعدادنا: يجب علينا أن نجرب الكشف عن المعنى اللازم لتلك الأوامر التي جاء بها النبي. على ان الواجب يحملنا في كل حال أن نطيع تلك الأوامر سواء اكنا قادرين على فهمها أم لم نكن . وأحب أن أضرب هنا مثلا جندياً أمره قائده أن يحتل مركزاً حربياً ما إن الجندي الصحيح يسمع هذا الأمر وينفذه في الحال . فاذا استطاع الجندي في هذه الاثناء أن يفهم بنفسه الغاية الحربية القصوى التي تخيلها قائده ، كان ذلك من حسن حظه وحسن حظ الجيش ، لكن إذا لم ينكشف له فليس من شأنه أن يترك تنفيذ ذلك الأمر أو أن يؤجله . **ونحن المسلمين نعتقد ان نبينا أحسن قائد عرفه البشر ، ونحن نعتقد بطبيعة الحال انه كان يعرف امر الدين بناحيتيه الروحية والاجتماعية اكثر مما استطعنا نحن ان نعرفه. فإذا امرنا**

بشيء أو نهانا عنه فلأنه كان أمراً « مقدراً » يرى هو أنه لا غنى عنه لصلاح الناس الروحي والاجتماعي . وقد يكون هذا الأمر ظاهراً بوضوح، وقد يخفى كثيراً أو قليلاً عن عين الرجل العادي القليل المران . ثم اننا أحياناً نستطيع أن نفهم أبعد الأهداف في أوامر الرسول، وأحياناً لا نفهم إلا القصد السطحي منها . ومهما كان من الأمر فالواجب علينا أن نعمل بأوامر الرسول على أن تكون صحتها قد ثبتت من طرق معقولة . ومما لا شك فيه ان في أوامر الرسول ما هو عظيم الاهمية ومنها ما هو أقل أهمية ، فعلينا أن نقدم الأهم على المهم . ولكن لا يحق لنا أبداً أن نطرح شيئاً منها على زعم انها تبدو لنا غير جوهرية ، فقد جاء عن محمد في القرآن الكريم: « وما يَنطِقُ عن الهوى » (سورة ٥٣ النجم : ٨) ومعنى هذا أنه لا ينطق إلا إذا كان ثمة ضرورة ايجابية، وانه ينطق لأن الله تعالى أمره بذلك. من أجل هذا كله نرانا مضطرين إلى أن نعمل بسنة نبينا قلباً وقالباً إذا أردنا أن نُخلص وجهنا للاسلام .

*

فإذا تحقق المسلم الضرورة الايجابية للعمل بسنة نبيه أصبح من حقه حينئذ ، بل من واجبه ، أن ينظر في الدور الذي تقوم به السنة في بناء الاسلام الاجتماعي. ما المعنى الروحي لذلك النظام المفصل من تلك القوانين وآداب السلوك ، التي يجب ان تتخلل حياة المسلم منذ ولادته إلى يوم وفاته، والتي يجب أن تعين له سلوكه في أهم نواحي وجوده وفي أقلها أهمية على السواء، أو في تلك التي قد لا يكوّن لها معنىً ما على الاطلاق؟ وما الخير في أن يأمر الرسول

أتباعه بأن يفعلوا كل شيء كما كان هو يفعله ؟ ما الفرق في ان آكل باليد اليمنى أو باليد اليسرى ، إذا كانتا كلتاهما نظيفتين على السواء ؟ أليس هذا وأمثاله من الامور الشكلية الخالصة ؟ أوَ لها صلةٌ ما بتقدم البشر أو بخير المجتمع؟ وإذا لم تكن كذلك فلماذا فرضت علينا ؟ هذا هو الوقت المناسب لنا — نحن الذين نعتقد أن رقي الاسلام وانحطاطه متعلق باتبـــاع السنة — أن نجيب على هذه الاسئلة .

هنالك على ما أعلم ثلاثة أسباب بينة على الأقل لإقامة السنة :

فالسبب الأول تمرين الانسان بطريقة منظمة على أن يحيا دائماً في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس ، فإن الاعمال والعادات التي تقع عفو الساعة تقوم في طريق التقدم الروحي للانسان كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة . ان هذه الأعمال والعادات يجب أن تقلّ إلى أقصى حدودها لأنها تتلف التوجيه الروحي للفكر ، فكل شيء تفعله يجب أن يكون مقدوراً بارادتنا وخاضعاً لمراقبتنا الروحية . ولكن قبل ان نتوصل إلى ذلك يجب أن نتعلم مراقبة أنفسنا . ان ضرورة ضبط النفس أبداً قد عبر عنها في الاسلام عمر بنُ الخطاب أحسن تعبير فقال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا » . ولقد قال الرسول ايضاً : « اعبد ربك كأنك تراه [1] » .

لقد اشرنا من قبل الى ان الفكرة الاسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب ولكنها تشمل فعلاً حياتنا كلها، اما هدفها فهو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في « كلٍ » واحد. من اجل

(١) صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن ابي داود وسنن النسائي .

ذلك وجب أن تكون جهودنا موجهة بوضوح نحو إزالة العوامل التي تنشط في حياتنا على غير وعي منا وغير خضوع لسيطرتنا؛ فنزيلها بالقدر الذي تتحمله طاقة البشر. إن محاسبة النفس هي اولى الخطوات في هذا السبيل ، وان اوثق الوسائل للتمرين على محاسبة النفس أن تخضع اعمالنا التي تجري في حياتنا اليومية بحكم العادة وبغير مبالاة ظاهرة، للمراقبة. ان هذه « الصغائر » وتلك الاعمال والعادات «القليلة الاهمية» هي في الحقيقة فيما يتعلق بالمران العقلي الذي نتكلم عليه ، اكثر اهميةً من أوجه النشاط « العظمى » في حياتنا ، إذ أن الامور «العظمى» بالاضافة إلى عظمها، تبقى دائماً بادية بوضوح وتظلّ غالباً في نطاق وعينا . ولكن تلك الامور « الصغيرة » تغرب بسهولة عن بالنا وتخدعنا عن مراقبتنا لها . من أجل ذلك كانت تلك الصغائر أشياء أكثر نفعاً لنا في شحذ قوة ضبط النفس فينا .

قد لا يكون من المهم في ذاته ان نأكل بأي اليدين ، ولكن اذا اعتبرنا التنظيم فمن اشد الامور اهمية ان نأتي اعمالنا مقدّرة بنظام. وليس من السهل على الاطلاق ان يبقى الانسان في تنبه مستمر لمحاسبة النفس وضبطها، حتى ولو كانت فيه هاتان القوتان مثقفتين غاية التثقيف. ان كسل العقل لا يقل في حقيقته عن كسل الجسم، فإنك اذا سألت رجلا تعوّد حياة القعود أن يسير مسافة ما فإنه لا يسير غير قليل حتى يتعب ويصبح غير قادر على أن يتابع مسيره، وليس هذا شأن من تعوّد في حياته كلها ان يمشي ومَرِن على ذلك ، ثم لا يجد في هذا النوع من الجهد العضلي جهداً على

الاطلاق بل يجد فيه عملا جسمانياً مُستطاباً كان قد تعوده من قبل. فهذا تعليل آخر يرينا لماذا تشمل السنة كل ناحية من نواحي الحياة الانسانية تقريباً. فإذا تحتم علينا ابداً أن نُخضع جميع ما نعمل وجميع ما نترك لتمييز عقلي معلوم، فإن مقدرتنا على ضبط النفس واستعدادنا لذلك ينموان تدريجاً ثم يصبحان فينا طبيعة ثانية. وفي كل يوم — ما دام هذا التمرين مستمراً — يتناقص كسلنا الادبي حسب ذلك.

إن استعمال التعبير «تمرين» يقتضي بطبيعة الحال أن تكون قوته الفعالة معتمدة على الوعي في القيام به. وفي اللحظة التي ينحط فيها العمل بالسُنّة إلى عمل آلي، تفقد السنة قيمتها المثقّفة فقداناً تاماً، وكذلك كان شأن المسلمين في الاعصر الاخيرة. أما الصحابة والتابعون الذين قاموا بكل مسعى لجعل كل دقيقة في حياتهم موافقة لما كان عليه الرسول، فإنهم فعلوا ذلك مع الفَهْم التام بأنهم اسلموا أنفسهم إلى إرادة هادية تجعل حياتهم مطابقة لروح القرآن الكريم، وبالإضافة إلى هذا الفهم استطاعوا أن يستفيدوا من التمرين على العمل بالسنة أعظم ما يمكن لهم أن يستفيدوا. وليس الخطأ على النظام، أي نظام السنة، إذا كان المسلمون في الأعصر المتأخرة لم يحسنوا السير على السبل التي شقتها لهم. ولعل هذا الإهمال للعمل بالسنة راجع في الأعم الأغلب إلى نفوذ التصوف الفارسي الذي ازدرى القوى الفاعلة في الانسان وبالغ في تأكيد قيمة القوى المستوحية فيه. وبما ان العمل بالسنّة اصبح جزءاً جوهرياً من الحياة الدينية الإسلامية منذ بدء الدعوة، فإن الصوفية

لم تستطع أن تستأصله مبدئياً، ولكنها استطاعت ان تبطل قوته الفعالة وأن تبطل من أجل ذلك، إلى حد ما، نفعه المرتجى. وهكذا صارت السنّة في نظر المتصوفين رسماً ذا قيمة افلاطونية (رمزية) فقط وذا أساس صوفي، وأما الفقهاء والمتشرعون فكانت في نظرهم نطاقاً من القوانين، وأما عامة المسلمين فكانت عندهم صدفة فارغة لا معنى لها على الاطلاق. ومع ان المسلمين قد قصروا في الاستفادة من تعاليم القرآن الكريم ومن تفسير تلك التعاليم بسنة الرسول، فإن الفكرة التي تقوم عليها تلك التعاليم مع تفسيرها بالسنة لا تزال سليمة، وليس ثمة ما يمنع العودة الى العمل بها ثانية. ثم إن السنة ليست، كما يزعم النقاد من الخصوم، من نتاج المرائين والظاهريين الجفاة، ولكنها نتاج رجال ذوي وعي وعزيمة ولوذعية، وأصحاب رسول الله كانوا من هذا الطراز الأول. إن وعيهم الدائم ويقظتهم الباطنة وشعورهم بالتبعة في كل شيء — كانت هي سرّ الاعجاز في مقدرتهم وفي فوزهم التاريخي المدهش.

هذه هي الناحية الأولى والناحية الفردية كما يقال. أما الناحية الثانية فهي الأهمية الاجتماعية والنفع الاجتماعي. يكاد لا يكون ريب في أن أكثر المنازعات الاجتماعية ترجع إلى سوء فهم بعض الناس لأغراض بعضهم الآخر ولمقاصده. وسبب سوء الفهم هذا اختلاف الأمزجة والميول في أفراد البيئة الاجتماعية اختلافاً كبيراً **فإن الأمزجة المختلفة تحمل الناس على عادات مختلفة، وهذه العادات المختلفة اذا تبلورت بالمراس سنين طوالاً أصبحت حواجز بين الافراد. ولكن اذا اتفق على عكس ذلك، ان نفراً**

اتخذوا في حياتهم كلها عادات معينة ترجح ان تقوم صلاتهم المتبادلة على التعاطف، وان يكون في عقولهم استعداد للتفاهم . من أجل ذلك جعل الاسلام – وهو الحريص على خير الناس الاجتماعي والفردي – من النقاط الجوهرية ان يحمل بنفسه افراد البيئة الاجتماعية بطريقة منظمة على ان تكون عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت احوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة .

ومع هذا فان السنة مع ما فيها من « التشدد» المزعوم تقوم نحو المجتمع بخدمة أعظم : إنها تجعله متماسكاً مستقراً في شكله، وتحول دون تطور العداء والنزاع ، كما اتفق في المجتمع العربي ، إذ أثار ذلك التطور اضطراباً عظيماً تحت ستار ما يسمونه القضية الاجتماعية. إن مثل هذه القضايا الاجتماعية تنشأ حينما يبدأ الناس في النظر إلى بعض المؤسسات أو العادات على أنها غير كاملة في نفسها ، وأنها من أجل ذلك خاضعة للانتقاد والتبدل المستمر. ولكن فيما يتعلق بالمسلمين – أي أولئك الذين يعدون أنفسهم مقيدين بشريعة القرآن الكريم وبالتالي بأوامر الرسول ، فإن أحوال المجتمع عندهم يجب أن يكون لها مظهر مستقر لأنهم يرجعون بها إلى أساس مطلق . وما دام هـذا الاساس لا يحوم حوله ريب ما فليس ثمـة من حاجة ولا رغبـة في تبديل التنظيم الاجتماعي الذي نتج منه. وهكذا فقط نستطيع ان ندرك الإمكان العملي لما يفترضه القرآن الكريم من أن المسلمين يجب أن يكونوا « كالبنيان المرصوص » . فلو أنا طبقنا هذا المبدأ تماماً لما كان المجتمع مضطراً إلى أن ينفق جهوداً على أمور فرعيـة وإصلاح

اجتماعي ليس لها – حسب طبيعتها نفسها – سوى قيمة زائلة . فإذا تحرر المجتمع الانساني من الاضطراب الكلامي (الجدلي) ثم بُني على قواعد من الشرع الالهي والاقتداء بالرسول ، فإنه يستطيع حينئذ أن يستغل جميع قواه في معالجة مسائل تسبغ على المجتمع رفاهية حقيقية ، مادية وعقلية ، فتمهد الطريق أمام الفرد للسير في جهوده الروحية . هـذا ولا شيء سواه ، هو الغرض الديني للتنظيم الاجتماعي في الاسلام .

ثم نأتي إلى الناحية الثالثة من السنـّة وإلى التشدد في العمل بها. في هذا النظام من العمل بالسنة يكون كل شيء في حياتنـا اليومية مبنياً على الاقتداء بما فعله الرسول. وهكذا نكون دائماً، إذا فعلنا أو تركنا ذلك ، مجبرين على أن نفكر بأعمال الرسول وأقواله المماثلة لأعمالنا هذه. وعلى هذا تصبح شخصية أعظم رجل متغلغلة إلى حد بعيد في منهاج حياتنا اليومية نفسه ، ويكون نفوذه الروحي قد أصبح العامل الحقيقي الذي يعتادنا طول الحياة. ذلك يقودنا عن وعي منا أو عن غير وعي إلى أن ندرس موقف النبي في كل أمر . فحينئذ نتعلم أن ننظر اليه ، لا على أنه صاحب وحي أدبي فقط ، بل على أنه الهادي إلى الحياة الـكاملة أيضاً . وقبل أن نتزحزح عن هذه النقطة يجب أن نجزم فيما إذا كنا نعد النبي رجلاً حكيماً كغيره من الحكماء ، أو انه رسول الله الأسمى الذي يعمل دائمـاً بوحي إلهي . إن نظرة القرآن الكريم إلى هذا الأمر واضحة إلى حد أنها تجعل كل سوء فهم لها غير ممكن. إن الرجل الذي أُرسِل « رحمة للعالمين » لا يمكن إلا أن يكون

موحى اليه على الدوام، فإذا أبينا عليه هداه أو أبينا بعض عناصر هذا الهدى ، فإن هذا لا يعني شيئاً أقل من أننا نأبى رحمة الله أو نبحسها حقها ، ويعني فوق ذلك — إذا تابعنا هذه الفكرة منطقياً — أن الرسالة التي جاء بها الاسلام لم تكن حتى بمجموعها ، الحل النهائي لقضايا البشر ، بل كانت حلا آخر قد يكون مساوياً له في الصحة والفائدة ، وإن المفاضلة بين هذين الحلين قد تُركت لفطنتنا نحن : هذا المبدأ الهيّن — لأنه لا يجبرنا أدبياً ولا عملياً على أن نجزم بشيء مطلقاً — قد يقودنا إلى كل مكان ولكنه بكل تأكيد لا يقودنا إلى روح الاسلام ، وقد جاء في القرآن الكريم: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (المائدة ٣).

نحن نعد الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها: انه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد وبالمجتمع، انه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الانسانية من وجود الامكان الى السمو، بل يهتم ايضاً لما فيها من قيود طبيعية. إنه لا يحملنا على طلب المحال ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد ، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة — حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل. **انه ليس سبيلاً بين السبل ، ولكنه السبيل ! وان الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هادياً من الهداة ، ولكنه الهادي. فاتباعه في كل ما فعل وما امر اتباع للاسلام عينه ، واما اطراح سنته فهو اطراح لحقيقة الاسلام .**

الخاتمـــة

●

حاولت في الفصول السابقة أن أبين أن الاسلام في معناه الصحيح لا يستطيع أن يستفيد من تشرّب المدنية الغربية. ولكن لم يبق للاسلام اليوم، من الناحية الثانية ، سوى شيء ضئيل من القوة لا يستطيع بها أن يبدي مقاومة كافية ، ثم إن بقايا حياته الثقافية تتقوض في كل مكان بتأثير الآراء والعادات الغربية. وها نحن أولاء نسمع منه أنين الاستسلام ، والاستسلام في حيـــاة الشعوب والثقافات معناه الموت .

ما بال الاسلام ؟ أهو حقيقة كما يريد خصومنا والمتخاذلون في صفوفنا أن يجعلونا نعتقد فيه أنه « جهود ذاهبـة سدى » ؟ هل فقد الاسلام كل فائدة مرجوة ، وقدم للعـــالم كل ما كان ينتظر منه أن يقدمه ؟

يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الانسانية وجميع المدنيات أجسام عضوية تشبه الـكائنات الحية . إنها تمرّ في جميع أدوار الحياة العضوية التي يجب أن تمر بها : إنها تولد ثم تشب وتنضج ثم يدركها البلى في آخر الامر . فالثقافات ، كالنبات الذي يذوي ثم يستحيل تراباً ، تموت في أواخر أيامها وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثاً .